

إقليمية اللهجات العامية

أكبر حجة على عدم صلاحيتها

الأستاذ إلياس زنتيس

الجامعة الحرة (امستردام)

تري فيه فارتقا بين لهجة دمشق ولهجة حلب مثلا .
حتى في فلسطين القطر الصغير يوجد فرق بين
لهجة غزة ولهجة حيفا والجليل .

فما بالك بأقطار متعددة متباعدة جاورت وخالطت مع
الزمن شعوباً متعددة، ومن هذا الاختلاط تولدت فيها
لهجات ودخلت فيها كلمات خاصة بذلك القطر
لقربه من أحد الشعوب التي تجاور حدوده . فالعراق
الذي يجاوره الترك والفرس والتوتاز له لغة عامية
غير التي في الشام أو مصر أو غيرها وكذلك المغرب
وشمال أفريقيا له لغة عامية لا تفهم تماماً في باقي
الأقطار العربية . فأي من هذه اللهجات هي اللغة
العامية التي نريد أن نتخذها أداة للتفاهم
كما يقول البعض : فالدكتور انيس فريخة يريد أن
يكتب باللغة العامية اللبنانية وهو لا يقدر أن يكتب
بغيرها . والأستاذ محمد تيمور يعني باللغة العامية
المصرية والفرق بينهما كبير . وإذا قام كل قطر
يكتب بلغته العامية ففي ذلك لعمرى بلبله وأي بلبله
ونحر اللغة العربية بيد أصحابها وأبنائها .

وقد أحسن عميد الأدب العربي الدكتور طه
حسين الرد على فكرة اتخاذ اللغة العامية إذ قال :

« أحب أن ألفت نظر ادبائنا الذين يطالبون
بالالتجاء إلى اللهجات العامية إلى شيء خطير ما
أرى أنهم قد فكروا فيه فأحسنوا التفكير . هو أن
العالم الغربي الآن ، وكثيراً من أهل العالم الشرقي
كله يفهم العربية الفصحى ويتخذها وسيلة للتعبير
عن ذات نفسه وللتواصل الصحيح القوي بين أقطاره
المتباعدة فلنحذر أن نشجع الكتابة باللهجات العامية
فيمس كل قطر في لهجته وتعمن هذه اللهجات في
التباعد والتدابير ، ويأتي يوم يحتاج فيه المصري إلى أن

كثر الكلام والجدال في الآونة الأخيرة حول اللغة
الفصحى واللغة العامية وكيف يمكن الوصول إلى
اتفاق بينهما والفرق البعيد في الكتابة والتخاطب بينهما
ودعا بعضهم إلى التآليف في اللغة العامية لسهولة
وتعبيرها عن أفكار العامة بابتساق وطرح اللغة
الفصحى جانباً لصعوبتها للذين لم يتعلموا هذه
اللغة في المدارس ولتعقيدها كما يقولون . كما دعا
بعضهم إلى الكتابة بالأحرف اللاتينية أسوة بالأتراك .
وذم بعضهم حجة بأقوال بعض الأجانب الذين
يتعلمون اللغة العربية في أوروبا على الطريقة
الفصحى فإذا قدموا إلى بعض الأقطار العربية
صنم عليهم التفاهم والتخاطب مع عامة الناس
فيها .

ولعمري أن الموضوع ذو أهمية كبيرة ليس في
البحث عن أي من الطريقتين يجب أن نتبع ، بل أن
أهمية الموضوع كامة في أن نحسم الجدال فيه ونقل
من الكلام حوله حتى لا يتشعب السراي وحتى لا
يتسلل أدنى شك في لغتنا الفصحى يدعو إلى وصفها
أو يرميها بالعقم وعدم مجاراتها لروح العصر
وعجزها عن مجارة اللغات الأخرى في العلوم
والفنون . ولذلك أرى أن لا تترك مجامعنا اللغوية
هذه الفكرة تنمو في عقول الناس بفتح باب
الجدل والنقاش حول هذا الموضوع إلى ما لا نهاية له .

أين توجد اللغة العامية ؟

إن البلاد العربية أقطار شائعة واسمعة
تمتد من المحيط إلى المحيط . فهي ليست قطراً واحداً
حتى يكون له لغة عامية واحدة . وحتى في القطر
الواحد توجد فيه عدة لهجات . فالصعيد المصري
له لغة عامية غير التي في البحري وكذلك السوري

نماذا نعمل بهذا الميراث العظيم وهل نقطع صلتنا به ونتخذ العامية لغة لنا ؟

وإذا اخذنا باللغة- العامية ودرجنا عليها وادخلناها مناهج التدريس بدل اللغة الفصحى ثم أراد الواحد منا ان يدرس مناهج دينه في القرآن والحديث والفقهاء او دراسة الادب العربي والبحث فيه وجد ذلك من اصعب الامور واضطر ان يدرس لغة غير التي درسها وتعود عليها . ان الاخذ باللغة العامية سوف يبعثنا عن فهم الادب العربي قبل الاسلام وبعده ويضيع منا تراث ضخم تحسبنا عليه جميع الاسم .

وقد قام احد الذين ينادون بالعامية السى استخلاص الاحكام التالية ، قال :

(1) ان اكثر الالفاظ العامية عربية اصابها التحريف في النطق للتخفيف والتيسير

والرد على هذا الحكم هو ان المتعلم السذي اعتاد النطق السليم لا يسمي لان يحرفه حتى لا يشذ وقعه في اذنه .

(2) ان اسلوب العامية قد استقر على صورة تعودها الناس وهو يختلف عن الاسلوب العربي الصحيح .

والرد على ذلك ان اسلوب الفصحى قد استقر على صورة وضعها علماء اللغة بعد البحث والاستقراء وان اسلوب العامية له صور متعددة بتعدد الاقطار العربية وهو يختلف عن الاسلوب العربي العامي .

(3) ان العامية لا تزال تتطور ، وهذا التطور ناشيء عن حياة الناس ، فهي وليدة الحياة نفسها وفيها من المرونة ما في الكائن الحي .

الجواب ان العامية تتطور وهذا التطور ناشيء عن الجهل بالثقافة والتعليم فهي وليدة الجهل بلا جدال ومرونتها لا تعادل مرونة الفصحى .

(4) ان العامية ليست مسخا مجردا عن الفصحى وانما هي لغة قائمة بنفسها لها قواعد واصولها نماذا شذ عنها فكأنه خرج عن طريقة مقررة .

الجواب ان العامية مسخ وتحريف عن الفصحى كما اعترف في الحكم الاول وهي ليست لغة قائمة بنفسها بل لغات متعددة بتعدد الاقطار وكسل قطر له قواعد واصول غير التي في القطر الاخر وليست لها طريقة مقررة الا في القطر الواحد وهذه الطريقة

يترجم الى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين ويحتاج اهل سوريا ولبنان والعراق الى مثل ما يحتاج اليه المصريون من ترجمة الكتب المصرية الى لهجاتهم كما يترجم الفرنسيون عن الايطاليين والاسبانيين وكما يترجم هؤلاء عن الفرنسيين .

ولنسال انفسنا آخر الامر ايها خير ان تكون للعالم العربي كله لغة واحدة هي اللغة الفصحى يفهمها اهل مراكش كما يفهمها اهل العراق ، ام ان تكون لهذا العالم لغات بعدد الاقطار التي تتألف منها ، وان يترجم بعض عن بعض ؟ اما انا فاثور وحدة اللغة هذه فهي خليقة بان يجاهد في سبيلها المؤمنون بها وبان يضحوا في سبيلها بكل ما يملكون .. »

هذا هو رد زعيم الادب العربي ولعربي انه احسن رد على الداعين لاتخاذ اللغة العامية .

ما هي اللغة العامية ؟

كانت اللغة في الجزيرة العربية لغة فصحى رغم تعدد اللهجات التي كانت في المناطق المتعددة من الجزيرة وكانت ارتقاها لغة الحجاز ونجد . وبما ان الحجاز كان ممرًا للتجارة وكانت مكة مكانا للحج فقد كانت تزيش اتوى البطون العربية واكثرها نفوذا من اثار التجارة والحج فقد غلبت لهجتها على غيرها من اللهجات . فلما جاء الاسلام نمت لها واصبحت لهجتها هي العليا وصارت لسان النبوة والملك والعلم والفصاحة . فلما خرج العرب من جزيرةهم وعاشروا غيرهم من الشعوب في الممالك التي اخضعوها لسلطاتهم خافوا على لغتهم من التحريف واللحن . ولما جاء اقدمهم السى زياد بن ابيه والى العراق وقال له : « اصلح الله الامير ، توفي ابانا وترك بنون » اوعز الامير الى ابي الاسود الدؤلي ان يضع للناس ما يقيمون به كلامهم فقام بوضع علم النحو . واخذت الفيرة غيره من العلماء فوضعوا ما أشكل من ابواب اللغة . وهكذا اصبحت اللغة ذات قواعد ثابتة وكثرت المؤلفات في مختلف علوم اللغة والبلاغة وكثر الشعراء واصحاب الرسائل فأمدوا اللغة بكنوز وانفة من بنات افكارهم وقام الائمة في جمع الاحاديث النبوية وكتبوا التناسير ووضعوا الفقه . وقام التراجمة بنقل العلوم عن اليونان والهنود وغيرهم ، وهكذا مع الزمن صار للعربية رصيد عظيم في العلوم والآداب لم يكن لامة من الامم واصبحت خزائن الكتب في العالم تمتلك مئات بل آلاف المؤلفات العربية في شتى العلوم والآداب .

تعتبر شذوذاً في باتي الاقطار وهنا نعود الى السؤال المهم وهو اي لغة عامية من لغات الاقطار المتعددة يعني ؟

هذا ولو اردنا ان نرد على الداعين الى اللغة العامية لندحض مزاعمهم لاحتجنا الى وقت طويل او الى كتاب كبير ، وان الذين يناصرون العامية يفكر كل منهم في لغته او بالاحرى في لهجته التي درج عليها مع العلم انها لا توافق لهجة اخوانه في الاقطار الاخرى وجاء لاحدهم في كتاب « نحو عربية ميسرة » الفقرة التالية :

« .. انك لا تستطيع ان تقول بالفصحى ما تقول بالعامية ، واذا نقلته الى الفصحى اتى جافا قاسيا خلوا من العنصر الانساني اللطيف في اللغة . تصور على المسرح فلاحا يتكلم بالفصحى او سكيراً يتكلم الفصحى او خادمة تخاطب سيدتها بالفصحى ، او نجيب حنكس يقص اقصيصه الزحلاوية البرازيلية بلغة الزمخشري ، وسعيد فريحة في نكات يقصها بالفصحى او المجلات المصرية تنقل كلام ابن البلد الى اللغة الفصحى .. »

ان الكاتب يتجنى على اللغة العربية وهي براء منه وما كان منه ان ينكر افضال اللغة العربية بل وامجادها في الحياة الفكرية الانسانية وانها عبرت ولا تزال تعبر عن الحياة بحلاوتها ومرارتها ولينها وشدتها ، وان كتبها الادبية من نثر وشعر فيها من التعابير التي يهتز لها القلب فرحاً من حلاوتها وبهطل لها الدمع من مرارتها وان العربية لم تدع باباً من ابواب الحياة الا ولجته وعبرت عنه احسن التعبير لينة وشدته .

اما تصوره فلاحاً على المسرح يتكلم الفصحى او سكيراً او خادمة تخاطب سيدتها بالفصحى فهذا كله لاننا اعتدنا ان نعرف ان فلاحنا الجاهل او خادمنا او غيرها من عامة الناس قد حرموا من الثقافة وعاشوا القرون الطوال في جهل وتأخر والتعليم لم يصل حديثهم ولذلك فقد تعودنا ان نسمع فلاحنا يتكلم بلغته البعيدة عن اصل اللغة لانه لم يتعلم اللغة فيخرج الفاظاً اصطلح عليها هو وآبأؤه في بيئته لاداء المعنى المطلوب . ومع ان فلاحى اوربا لهم لهجة غير التي في المدن غير ان الفلاح الاوروي اذا اراد ان يتكلم مع مثقف او رئيس دائرة من سكان المدن فانه يقدر ان يتكلم بلغته المثقفة .

اما اذا قص نجيب حنكس احاديثه الزحلاوية ، وهي لبنانية اللهجة ، على مسمع من عراقي او مراكشي او يماني ، فانهم سوف لا يفقهون منها شيئاً وسوف لا يطربون لها لانها ليست من المصطلح الذي اعتادوه وكذلك قل عن سعيد فريحة اللبنايى او ابن البلد المصري .

فما لا ريب فيه ان اللغة العامية تمتد حين يصيب التعليم جزر . اي ان اللغة العامية وصلت الى هذا الفرق بينها وبين الفصحى بعد ان انحصر التعليم في الاقطار العربية وقلت المدارس وساد الجهل وقلت الفئة المتعلمة . وان عصور التخلف التي تتابعت على الاقطار العربية وهي تزرع تحست نير اجنبي او نير سلطة محلية لا تهتم لصالح شعوبها خلقت في هذه الاقطار اكرية امية جاهلة لم يصقلها التعليم وابتعدت عن اصول اللغة ومصطلحاتها تجهلها بها ، فانكبت على لغتها العامية لتستعويض بها عما هي فيه من النقص ومع توالي الاجيال كثر البعد بينها وبين الفصحى الى ان صارت كما هي عليه اليوم . الا ان لهذه العلة دواء ، فماذا احسنا استعمال هذا الدواء ، — وهو احسن دواء — فاننا نتمكن به اولا من الحفاظ على لغتنا من الانقراض وثانياً على امة العرب من الفوضى التي سوف تنشأ اذا اخذ كل قطر يكتب بلغته العامية ، واعوذ بها من فوضى وليتذكر الذين يهتمون بهذه المسألة ان الورد لا يجنى بدون وخز شوكة والعسل بدون وخز ابره . وليتذكر الذين يهتمون بذلك اننا سوف لا نجني ثمارها يانعة في وقت قصير ولكن سوف نجني ثمارها بعد جيل او جيلين من الزمن وهي ليست حقبة طويلة بالنسبة للتاريخ واعني هنا اننا سوف نجني ثمارها مع الجيل القادم وثمارا احسن مع الجيل القادم ان شاء الله . مع اننا اذا اتبعنا الطريقة العامية فسوف لا نجني اية ثمار سوى ضياع اللغة وسوى الفوضى من زعم كل قطر ان لغته العامية هي المثلى .

ان الدواء الوحيد لانقاذنا من الفوضى وانتقاذ لغة الضاد من الانقراض هو التعليم ، والتعليم فقط . فاذا اتبعنا طرق التعليم بالمعنى المعروف اي التعليم الاجباري مع وضع برامج خاصة لمحاربة العامية وتقريب الثقافة الى كافة الجاهير من فلاحين وحضر فاننا نستطيع بعد جيل او جيلين ، تقويم الموج من السنة العرب المعوجة وجعل الفلاح والخادمة وسواهما يقدران على التفاهم والتخاطب

عند الصغار حتى إذا صاروا رجالا في المستقبل
كانت مناهج التعليم والكتب الموحدة قد وُحِدَتْ مِنْ
أفكارهم وذهبت بالعصية وتلقت من البعد بينهم .

ثالثا : وضع نظام في المدارس في جميع الاقطار
يحفز الطلبة على التخاطب بالفصحى ما أمكن
واقامة حلقات خطابية ومحاربة أو تقليل التكلم
بالعامية مع افهام الطلبة فائدة ذلك لهم ولبلادهم .

رابعا : عقد مؤتمرات لغوية يحضرها ممثلون
عن جميع الاقطار العربية لوضع مصطلحات لتوحيد
أسماء الاشياء المختلف في الاصطلاح عليها في بعض
الاقطار من عامية أو فصحى .

خامسا : كل البحوث الخاصة باللغة العربية
يجب أن يعود البت فيها الى مجامع اللغة لا الى
أفراد .

بالفصحى بعد أن يكون قد شبلهم نظام التعليم
وأخذوا قسطهم من الثقافة ، وعندئذ إذا تقدم
أحد الأوربيين الى أي بلد من بلاد العرب فانه سوف
يرى أن كل الأمة رجالها ونساءها يتكلمون أو يقدرون
على المخاطبة بالفصحى فيفهمونه ويفهمهم .

وبالختام اضع هنا بعض الحلول للخروج من
هذه المشكلة راجيا ان تلاقي من اولي الامر بعض
الاهتمام :

اولا : العمل على تسهيل قواعد اللغة وعقد
مؤتمرات من اللغويين لوضع نظام جديد لدراسة
اللغة وتبسيط النحو .

ثانيا : توحيد التعليم الخاص باللغة العربية
مع وضع كتب خاصة للغة والنحو والتاريخ والعلوم
يقوم بوضعها نخبة من المعلمين أو المؤلفين من جميع
الاقطار وتدرس في جميع الاقطار وبذلك تتوحد الافكار

